الأخلاق المحمودة في قصص أنبياء أولو العزم في تفسير الميزان للطباطبائي

أ.م. د. إيمان عبد الحسن علي
جامعة بابل ـ كلية العلوم الإسلامية
ميامن حميد عباس
وزارة التربية العراقية

الملخص:-

إنَّ الله سبحانه وتعالى جعلَ جانب الأخلاق من أهم المبادئ والقواعد والأسس الثابتة التي تحكم سير الإنسان في اتباع منهج الأنبياء عليهم السلام، وتعد الأخلاق بمنظور العلَّامة الطباطبائي غاية في ذاتها، وهذا ما أكَّدته الأديان السماويَّة للأنبياء أولو العزم عليهم السلام فعند التعليم يجب التعرف على الجانب الأخلاقيّ أن يتلقاه المتعلِّم من حيث الحقائق العلميَّة المشفوعة بالعمل حتَّى يُؤهِل نفسه للعمل ويتمرَّن عليه لتزول بذلك الاعتقادات المُخالفة الكائنة ويُرسخ التصديق بما تعلمه في النفس؛ لأنَّ الواقع أحسن شاهد على الإمكان، ورعاية هذا الأسلوب في التعليمات الدينيَّة من حيث الجد والعمل وخاصة في التعاليم الدينيَّة الإسلاميَّة من أوضح الأمور التي تؤدي إلى صياغة الإنسان المؤمن الذي يتحلَّى بالخلق المحمود من حيث الشجاعة والصبر والعدل والعفة وغيرها، وكل هذا التنظيم له هدف سامي هو بلوغ الإنسان للسعادة والكمال في الدنيا، ومن ثمَّ السعادة الدائمة في الحياة الآخرة.

الكلمات المفتاحية: الأخلاق المحمودة، أولو العزم، العلَّامة الطباطبائي.

Praiseworthy morals in the stories of the prophets of resolve in the interpretation of Al-Mizan by Al-Tabataba'i

Asst. Prof. Dr. Iman Abdul-Hassan Ali
University of Babylon/College of Islamic Sciences
Mayman Hamid Abbas
Iraqi Ministry of Education

Abstract:-

God Almighty has made the aspect of morality one of the most important principles, rules and fixed foundations that govern the conduct of man in following the method of the prophets (peace be upon them). From the perspective of Allamah Tabataba'i, morality is an end in itself, and this is what the heavenly religions have confirmed for the prophets of resolve (peace be upon them). When teaching, the moral aspect must be recognized and received by the learner in terms of scientific facts accompanied by action so that he qualifies himself for action.

And he practices it in order to remove the existing opposing beliefs and to establish the belief in what he has learned in the soul, because reality is the best witness to possibility. And taking care of this method in religious teachings in terms of seriousness and work, especially in Islamic religious teachings, is one of the clearest matters that leads to the formation of the faithful person who is adorned with praiseworthy morals in terms of courage, patience, justice, chastity, and others.

All of this organization has a lofty goal: to enable humanity to achieve happiness and perfection in this world, and then eternal happiness in the afterlife.

Keywords: *praiseworthy morals, people of determination, Allamah Tabataba'i.*

بسم الله الرحمن الرحيم

الجانب الأخلاقي في قصص أنبياء أولي العزم عليهم السلام:

الاجتماعات المدنيَّة لها غاية واحدة وهي التمتع من مزايا الحياة لتتبلور السعادة عندهم، ولكن الإسلام صرَّح بأنَّ الحياة الإنسانية أوسع مداراً من الحياة الدنيا المادية ألَا وهي الحياة الآخروية التي لا تنفع إلَّا بالمعارف الإلهيَّة التي تنحل بجملتها إلى التوحيد، إذ إنَّ هذه المعارف لا تحفظ إلَّا بجوهرة مكارم الأخلاق وطهارة النفس ومراقبتها من كلِّ رذيلة، ولا تكتمل هذه الأخلاق إلَّا من خلال حياة اجتماعية صالحة مُستندة على عبادة الله سبحانه، وأنبياء أولو العزم عليهم السلام غايتهم أن يكون المجتمع البشريّ متوحِّد بدين التوحيد وهو القانون الأساسيّ وأتمه بالعبادات وبالتربية الصالحة قولًا وفعلًا، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والأخلاق من أهم ما يُشاهد في هذا الدين وهي جوهر الإنسان، فهي روح التوحيد السارية فيه بارتباط جميع أجزائه ارتباطًا يؤدي إلى الوحدة التامَّة فهي منتشرة في كلِّ العبادات التي يُكلَّف بها أفراد المجتمع وجميع ذلك يرجع بالتحليل إلى التوحيد الذي مزج بين الأعمال والأخلاق[1].

حاصل القول: إنَّ الأخلاقَ مُمكن أن تُغيِّر الإنسان؛ لأنَّها منظومة متكاملة من المبادئ والسلوكيات التي تضبط سلوك الأفراد في المجتمع، فلو كانت لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات التي جاء الأنبياء والأوصياء والصالحين بها.

أوَّلاً: الأخلاق لغةً:

قال ابن منظور: (الخُلُقُ بضم اللام وسكونها هو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنَّ صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة

(١) ينظر: قضايا المجتمع والأسرة، السيد محمد حسين الطباطبائي، دار الصفوة: ٣٠.

الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها "[1] ويقول صاحب كتاب القاموس (والخلق بالضم وبضَمّتَيْنِ: السّجِيّةُ والطّبْعُ والمُروءةُ والدينُ"[2].

ثانيًا: الأخلاق اصطلاحًا:

وهي عبارة عن حالة للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويّة" [3] فـ"الأخلاق تعتبر مجموعة الكمالات المعنويّة والسّجايا الباطنيّة للإنسان"[4].

وعرَّف العلاَّمة الطباطبائي علم الأخلاق بأنَّه: الفن الذي يبحث عن الملكات الإنسانيَّة المُتعلِّقة بقواه النباتيَّة والحيوانيَّة والإنسانيَّة، وامتياز الفضائل منها من الرذائل ليستكمل الإنسان الالتزام والاتصاف بها سعادته العلميَّة، فيظهر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام والإطراء الجميل من أفراد المجتمع الإنسانيّ[5].

ويمكن الإشارة إلى أنَّ العلامة الطباطبائيّ عرف معنى الأدب "هو الهيئة الحسنة التي ينبغي أن يقع عليه الفعل المشروع إمَّا في الدين أو عند العقلاء في مجتمعهم كآداب الدعاء وآداب ملاقاة الأصدقاء وإن شئت قلت: ظرافة الفعل"[6].

إنَّ الأخلاق الإنسانية تنتهي إلى ثلاث قوى عامة هي الباعثة للنفس على اتخاذ العلوم العمليَّة التي تستند وتنتهي إليها أفعال النوع وتهيئتها وتعبيتها عنده، والقوى الثلاث هي الغضبيَّة والشهويَّة والنطقيَّة والفكرية، فالأعمال والأفعال الصادرة عن الإنسان جميعها فهي إمَّا من قبيل الأفعال التي تجلب المنفعة كالأكل والشرب

(١) لسان العرب، ابن منظور:١٠/١٠٩

(٢) القاموس المحيط والقابوس الوسيط في اللغة تأليف القاضي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: ٢٢٩/٣

(٣) تهذيب الأخلاق، احمد بن محمد ابن مسكويه:١٨.

(٤) الأخلاق في القرآن، مكارم الشيرازي:١ /١٤ -١٥

(٥) ينظر: تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي:١/ ٣٧٠.

(٦) ينظر: تفسير الميزان، السيد الطباطبائي: ٢٥٦/٦. سنن النبي ﷺ، السيد محمد حسين الطباطبائي: ٣٧.

واللبس وغيرها، وإمَّا من حيث الأفعال التي تؤدي إلى دفع المضرة كدفاع الإنسان عن نفسه وعرضه وماله ونحو ذلك[1].

المطلب الأوَّل: اللغة الأخلاقيَّة في قصص أولي العزم عليهم السلام

تعد الأخلاق بمنظور العلَّامة الطباطبائي غاية في ذاتها وهذا ما أكدته الأديان السماوية للأنبياء أولو العزم عليهم السلام فمن الواجب عند التعليم والمعرفة بالجانب الأخلاقيّ أن يتلقى المُتعلِّم الحقائق العلميَّة مشفوعة بالعمل حتَّى يتدرب بالعمل ويتمرن عليه لتزول بذلك الاعتقادات المخالفة الكائنة في زوايا نفسه ويرسخ التصديق بما تعلمه في النفس؛ لأنَّ الوقوع أحسن شاهد على الإمكان ورعاية هذا الأسلوب في التعليمات الدينيَّة وخاصَّة في التعليم الدينيّ الإسلاميّ من أوضح الأمور[2].

فـ"الإسلام الذي أنشأ نهجه وسننه الجارية وقوانينه الموضوعة على مبادئ الأخلاق وبالغ في تنظيم حياة الناس عليها لكون القوانين الجارية في الأفعال في ضمانها وعلى عهدتها فهي مع الأنسان في سره وعلانية وتؤدي دورها وتعمل عملها أحسن ممَّا يؤديه رقيب شرطة أو أي قوة تكرس جهدها في حفظ النظام. وتعنى بتربية الناس على الأخلاق المحمودة وتبذل جهدها في دعوة الناس وترغيبهم إليها[3].

أمَّا أوَّلًا فلأنّ رذائل الأخلاق منشأها الوحيد ليس إلَّا الإفراط والإسراف في التمتع الماديّ والحرمان البالغ فيه وقد منحت القوانين للناس الحرية الكاملة فيه فأمتعت بعضًا ومنعت آخرين، على أنَّ هؤلاء يتفكرون في مصلحة المجتمع ولا تزال مجتمعاتهم تفرط في استبداد المجتمعات الضعيفة وتفنيد حقوقهم والتمتع بما في أيديهم واستعباد نفوسهم وتوسعه في التحكم عليهم ما قدروا وطلب الصلاح والتقوى مع هذه الخاصية ليست إلَّا دعوة متناقضة لا تثمر.

(١) تفسير الميزان، السيد الطباطبائي: ١/ ٣٧١.

(٢) تفسير الميزان، السيد الطباطبائي: ٦/ ٢٥٨.

(٣) ينظر: تفسير الميزان، السيد الطباطبائي: ٤/ ١١٠-١١١.

وأمَّا ثانيًا فلأنَّ الأخلاق الفاضلة أيضًا تستلزم استقرارها وثباتها ووجود من يضمن حمايتها ورعايتها. وليس التوحيد فقط، وأنَّ الله إلهًا واحدًا له أسماء حسنى خلقَ المخلوقات لغاية سعادتهم وتكميلهم وهو يحب الصلاح والخير ويبغض الفساد والشر وسيجمع كلَّ الناس لإتمام القضاء وإعطاء الجزاء فيجازي المحسن عن إحسانه والمسيء على إساءته، فلولا الإيمان بالبعث لم يكن هناك سبب جوهري يحول دون اتباع الهوى والامتناع عن حظوظ النفس الطبيعية فالطبيعة الإنسانية تسعى وراء شهوتها دون النظر إلى منفعة الآخرين(١).

فالخلق المحمود: سمة ثابتة في النفس مكتسبة أو فطرية، تدفع إلى عمل إرادي محمود عند المتعقلون. ونميز الأخلاق الحميدة عن غيرها على أنَّها كلُّ أسلوبٍ فردي، أو اجتماعي، تتفق العقول البشرية على استحسانه، مهما اختلفت أديانها وعاداتها وتقاليدها ومذاهبها.

والخلق المذموم سمة ثابتة في النفس، مكتسبة أو فطرية، تدفع إلى تصرف إرادي مذموم عند العقلاء. وتمتاز الأخلاق الذميمة عن غيرها بأنَّها: كلَّ سلوك فردي، أو اجتماعي، تتفق العقول البشرية على استقباحه، مهما اختلفت أديانها وتقاليدها ومذاهبها وعاداتها(٢).

"تختلف الأخلاق من حيث أصولها وفروعها بتفاوت المجتمعات المدنيَّة ولاختلاف الحسن والقبح، فالأخلاق تواكب المبتغى القومي الذي هو وسيلة إلى تحقيق الكمال المدنيّ والغاية الاجتماعيَّة، لتأثير الحسن والقبح لذلك، فما كان به التقدم وتحقيق الهدف والغرض هو الفضيلة وفيه الحسن، وما كان يدعو إلى التوقف والعودة الى الوراء هو الرذيلة، وعلى هذا فربّما كان الكذب والفحشاء والافتراء والقساوة والسرقة والوقاحة والشقاوة فضيلة وحسنة إذا وقعت في طريق

(١) ينظر: تفسير الميزان، السيد الطباطبائي: ٤/١١٠-١١١.

(٢) ينظر: موسوعة الأخلاق، خالد بن جمعة الخراز: ٢٤.

المبتغى الاجتماعي، والصدق والرحمة والعفة رذيلة قبيحة إذا أوجب المنع عن تحقيق المطلوب[1].

ويتضح من بيان العلَّامة الطباطبائي في تفسيره أنَّ القيم الأخلاقية لا تكفل سعادة المجتمع ولا تقود الأنسان إلى العمل الصالح إلَّا إذا اتخذت التوحيد أساسًا وهو الإيمان بالله الذي دعي إليه أنبياء أولو العزم من خلال دعوتهم، وإنَّ للكون ومنه الإنسان إلهًا واحدًا أزليًّا سرمديًّا لا يخفى عليه شيء ولا يغلب في قدرته عن أحد، خلق الخلق على أكمل نظام وسيرجعهم إليه فيحاسبهم فيثيب المحسن بإحسانه ويعذب المسيء بإساءته ثم يخلدون أمَّا منعمين أو معذبين.

المطلب الثاني: الأخلاق المحمودة التي حُثَّ عليها في قصص أولي العزم عليهم السلام

تُعد الأخلاق من المبادئ والقواعد التي حثَّ عليها جميع الأديان فهي أساس الحضارة "لقد أحصى دستور الأخلاق الإسلاميّ الأخلاق الحميدة خُلقًا خُلقًا، وحثَّ المسلمين على التخلق بها جميعًا، والالتزام بآدابها ومبادئها، ورسم أيضًا الإطار الإنسانيّ الراقي الذي تتحرَّك فيه، ثم جعلها ركنًا مكينًا من أركان اكتمال الإيمان في عقيدة المسلم"[2]، وهو أنَّ الأخلاق وسيلة للسعادة، فالسبب في أن يكون المرء أخلاقيًّا هو أن يكون متوائمًا تمامًا مع الخطة الإلهيَّة، إذ تقوم الأخلاق بمساعدة الخطة الإلهيَّة على التحقق والارتقاء بالسعادة فهذا جزء من ذكاء الله السرمدي وأهميتها الكونيَّة[3].

"إنَّ مقياس نهضة الأُمم ورُقي حضاراتها هو ميزان الأخلاق لديها وفي رقيها وسموها، وليس في اتساع رقعتها الجغرافيَّة أو قواها البشريَّة العددية المُجرَّدة ولا في قوة اقتصادياتها ومواردها أو كثرة العمران في أراضيها ولا حتَّى في تقدمها في مضمار العلم وامتلاك ناصيته (مع الإيمان المُطلق بأنَّ كلَّ ما ذكر هي مقومات

(١)ينظر: تفسير الميزان، السيد الطباطبائي:١ / ٣٧٥.

(٢) دستور الأخلاق من وحي الكتاب والسنة، اميدي، زهير:١١.

(٣) ينظر: مفهوم الأخلاق، ولتر ستيس: ٣٥٩.

أساسيَّة لا غنى عنها لنهضة أيَّة أمة وفي بناء أية حضارة. ولكن بدون ميزان الأخلاق فإنَّ الحضارات ومهما بلغت مستويات الرقي العلميّ والصناعيّ والاقتصاديّ والعمرانيّ فيها تبقى حضارات ماديَّة جشعة عمياء، تفتقر إلى القيم الإنسانيَّة والسلوك الإنسانيّ الراقي بمفهومه الشامل على مختلف الصُعد؛ الصعيد الفردي، صعيد المجتمع والأمة، صعيد علاقات هذه الأمَّة بالأمم الأخرى.

ولا بدَّ وأنت تدقق في أحوال أمَّة مُتقدِّمة في نهضتها وعلومها ولكن قد تجد لديها خللًا في ميزانها الأخلاقيّ، أن تتلمَّس طغيانها أو جبروتها أو انفلاتها في حلقة أو حلقات من تعاملاتها على الصعيد المحليّ داخل أوطانها أو على الصعيد الخارجيّ في علاقاتها مع الشعوب الأخرى. فميزان الأخلاق هو الذي يُنظِّم ويُهذِّب السلوك الفرديّ أو الاجتماعيّ أو الأمميّ وعند اختلال هذا الميزان لا بدَّ أن يبرز الخلل في السلوك والمعاملات على صعيد واحد أو على جميع الأصعدة في الوقت نفسه"[1]، والأخلاق المحمودة تقوم على أربعة أركان لا يمكن تصور إقامة شيء إلَّا بها:

- الصبر:

من الصفات المحمودة التي حثَّ عليها أنبياء أولو العزم، و يُعرَّف بكونه "خلق يحفظ النفس من اليأس إذ يطيل بها الطريق إلى أهدافها ويوقفها من الارتداد إذا أغلقت العقبات سبلها، ويرتفع بها عن الحزن والجزع إذا أهلكت النفس من أحداث الزمان الكثير، فالصبر تهدئة النفس من المكاره والمشاق، والتكبر عن الخنوع للمصائب والإباء على الخطوب، والصمود في مواقف الضنك، والمرتبة العالية، أو المسير إلى الغاية المخوفة حتَّى ينجز العمل مراحله، ويصل نهايته، ويحمد الدأب، وينجح الطالب[2] فمقدار ما لدى الإنسان من قدرة على الصبر فإنَّه بذلك يستطيع أن يضبط نفسه عن تلبية دوافعها المستثارة"[3]،"فالصبر يحمل على الاحتمال، كظم

(١) دستور الأخلاق من وحي الكتاب والسنة، أميدي، زهير:٥.

(٢) ينظر: أخلاق القرآن، عبد الوهاب عزام:٣٧.

(٣) العفة ومنهج الاستعفاف، يحيى بن سلمان العقيلي: ١٢٤.

الغيظ وكف الأذى، الحلم والأناة، الرفق عدم الطيش والعجلة"[1]، ويُعرّفه العلَّامة الطباطبائي" على أنَّه وحدة الوقاية من الجزع واختلال أمر التدبير"[2].

يضرب لنا أنبياء الله عليهم السلام أروع مثال في تحمل الأذى والصبر من أجل الدعوة إلى الله، وتحمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المشاق لأجل نشر الدعوة الإسلاميَّة، وكان أهل قريش يرفضون دعوته للإسلام ويقابل ذلك بالصبر الجميل، إنَّ الله سبحانه وتعالى وصف أنبياءه ورسلة بالصبر وخصَّ أنبياءه ذو العزم، وقال الله تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وأولو العزم من الرسل هم خمسة الذين ذكروا في سياق الحديث القرآنيّ هم نوح، وإبراهيم وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ (الانعام:٣٤)[3].

وقد بيَّن العلَّامة الطباطبائي إلى أنَّ " الله سبحانه وتعالى وضَّح للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم هداية له إلى سبيل من تقدمه من الأنبياء، وهو سبيل الصبر في ذات الله عزَّ وجلَّ، وقد قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الانعام: ٩٠)"[4].

وقال الطوسيُّ (٤٦٠ هـ)"فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر على الكفار من قومه وأذاهم كما صبرت الأنبياء من قبله، ولا يتجرأ أحدٌ على تكذيب خبر الله، ولا إخلاف وعده فإنَّ خبر الله سبحانه واقع على الكافرين لا محالة، ونصره لا بدَّ من حصوله فلذلك لا يمكن تكذيب أخبار الله؛ لأنَّ الله سبحانه لا يخلف وعداً، ولا خلف في وعده. ولا مُبطل لحججه وبراهينه ولا مُفسد لأدلته [5].

وقد تبيَّن ممَّا سبق أنَّ العلَّامة الطباطبائي في تفسيره الميزان لم يختلف مع

(١) موسوعة الأخلاق، خالد بن جمعة الخراز:٢٥.
(٢) تفسير الميزان، السيد الطباطبائي: ٣٤٤/١
(٣) ينظر: أخلاق المسلم قصص ومواعظ، حمزة الجبالي :١٠.
(٤) تفسير الميزان، السيد الطباطبائي: ٧/ ٦٣.
(٥) ينظر: التبيان في تفسير القرآن، الحسن الطوسي:١٢٢/٤.

الطوسي في تفسيره للصبر وإنَّ الله سبحانه وتعالى أوصى نبيه بالصبر كما صبر الأنبياء عليهم السلام من قبله.

وصرَّح الطباطبائي في تفسيره أنَّ ما جاء في قصة نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل كما ورد في قوله تعالى ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢) جواب ابنه، ﴿يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ﴾ إظهار رضاه بالذبح في صورة الأمر وقد قال: افعلِ ما تُؤمر ولم يقل اذبحني إشارة إلى أنَّ أباه مأمور بأمر ليس له إلَّا ائتماره وطاعته وذلك يدلُّ على تكرار الرؤية. وقوله ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ تطييب منه لنفس أبيه أنَّه لا يجزع منه ولا يأتي بما يهيج وجد الوالد عن ولده المزمل بدمائه، وقد زاد في كلامه صفاء على صفاء؛ إذ قيَّد وعده بالصبر فأشار إلى أنَّ اتصافه بهذه الصفة الكريمة أعني الصبر ليس له من نفسه ولا أنَّ زمامه بيده بل هو من مواهب الله ومننه إن يشأ تلبس به وله أن لا يشاء فينزعه منه(١).

واتضح ممَّا تقدم أنَّ العلَّامة الطباطبائي أشار إلى أنَّ الصفة التي اتصف بها الأنبياء عليهم السلام هي ليس من إرادتهم ولا من زمام أيديهم بل هي مِن مواهب الله سبحانه وتعالى ومننه عليهم.

- العفة:

وهي من الصفات المحمودة التي جاء بها القرآن الكريم، وتُعرَّف على أنَّها كف النفس عن المحارم، وعمَّا لا يجمل بالإنسان(٢)، "وتحمل على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل وتحمله على الحياء، وهو رأس كلّ خير وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة"(٣).

(١) ينظر: تفسير الميزان، السيد الطباطبائي ١٥٢/١٧.

(٢) ينظر: العفة ومنهج الاستعفاف، يحيى بن سلمان العقيلي: ٩٥. مظاهر العفة في قصة المرأتين مع موسى عليه السلام، عقيل سالم الشمري:١٦.

(٣) موسوعة الأخلاق، خالد بن جمعة الخراز:٢٥.

وخير مثال على ذلك هو النبي موسى عليه السلام عندما التقى بالمرأتين، قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٢-٢٧)

بيَّن العلَّامة الطباطبائي في تفسيره أنَّ معنى الذود المنع والحبس، والمُراد بقول: تذودان أنَّهما يحبسان أغنامهما من أن تبلغ الماء أو تختلط بأغنام القوم كما أنَّ المراد ولما جاء موسى مدين وجد على الماء مجموعة من الناس يسقون دوابهم ووجد على مقربة منهم امرأتين تحبسان أغنامهما أن ترد المورد قال موسى عليه السلام مُستفسرًا عنهما، حيث وجدهما تبعدان الغنم وليس على غنمهما رجل: ما أمركما؟ قالتا لا نقدر أن نمنح الماء لغنمنا أي من عادتنا ذلك حتَّى يذهب الراعون ويخرجوا دوابهم وأبونا رجل كبير، ليست له المقدرة أن يسقي بنفسه ولذا نحن أقدر منه في الأمر. وفهم النبي موسى عليه السلام من منطقهما أن تأخرهما في السقي نوع من تعفف تستر منهما وتعد من الناس عليهما فأسرع في ذلك وسقى لهما، فجاءته إحداهما تمشي على استحياء. ضمير إحداهما للمرأتين، وتنكير الاستحياء للتفخيم والمراد بكونها تسير على استحياء ظهور التعفف والتحجب من هيئتها في المشي وقوله: (فلما جاءه وقصَّ عليه القصص قال لا تخف يلوح إلى أنَّ شعيبًا استفسر حاله فقصَّ عليه قصته فطيَّب نفسه بأنَّه نجى منهم؛ إذ لا سلطان لهم على مدين[1].

وما قاله الطوسي (ت٤٦٠هـ) في تفسيره" فقالتا بأنَّنا لا نقدر نسقي غنمنا حتَّى

(١) ينظر: تفسير الميزان، السيد الطباطبائي: ١٦/٢٤-٢٦.

يذهب الرعاة، وإنَّما ننتظر فضول الماء في الحوض[1].

يتضح من تفسير العلَّامة الطباطبائي في قصة موسى عليه السلام والفتاتين أنَّ العلَّامة قصد أنَّه الفتاتين لم يقوما بالسقي؛ وذلك بسبب العفة والحياء وقد فهم عليه السلام من كلامهما أنَّ تأخرهما في السقي نوع من التستر وتحجب منهما فبادر إلى ذلك وسقى لهما. وقد خالفة الطوسيُّ في ذلك عندما بيَّن المعنى في أنَّ الفتاتين قالتا: إنَّا لا نقدر على السقي حتَّى يذهب الرعاء، أو يصرفون غنمهم؛ لأنَّا لا قوةَ بنا على الإسقاء، فعدَّ عدم الاستطاعة ليس من التعفف والحياء وإنَّما عدَّها من عدم القوة في السقي؛ لأنَّ أباهما رجلٌ كبيرٌ.

- الشجاعة:

وهي من الصفات المحمودة التي حثَّ عليها أنبياء أولو العزم عليهم السلام وهي صفة "تحمله على إعزاز النفس، وإيثار معالي الشيم والأخلاق، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته وتحمله على كظم الغيظ والحلم"[2]. وبهذا أكَّد علماء التفسير على الشجاعة لما جاء في سياق حديث القران الكريم وما ورد في قوله تعالى ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٥)

فقد بيَّن العلَّامة الطباطبائي في تفسيره معنى قولة تعالى "إذا كانت مسلك عدم طاعة الله ورسوله وإبطال عملهم هو المسلك وكان يؤدي إلى الحرمان من مغفرة الله أبدًا فلا تتهاونوا ولا تفتروا في أمر قتل أعدائكم ولا تدعون المشركين إلى الصلاح وترك القتال بل أنَّكم أنتم المتغلبون والله منصركم عليهم ولن ينقص شيئًا من أجوركم بل يوفيها لكم كاملة تامة[3].

(١) التبيان، الشيخ الطوسي: ٨/ ١٤٢-١٤٣.

(٢) موسوعة الأخلاق، خالد بن جمعة الخراز:٢٥.

(٣) ينظر: تفسير الميزان، السيد الطباطبائي: ١٨/ ٢٤٨.

وأشار الطبرسيُّ (ت٥٤٨هـ) في تفسيره "أنَّ (لن) للتأبيد فلا تهنوا أي فلا تتراخوا، ولا تضعفوا عن أمر القتال وتدعوا إلى السلم أي ولا تطلبوا من الكفار المصالحة والمسالمة. وأنتم المنتصرون وأنتم الغالبون المظفرون، لا تدعوهم إلى الإصلاح في الحالة التي تكون الغلبة والنصرة لكم فيها. وإنَّه ابتداء بالإخبار من الله عن حال المؤمنين أنَّهم الأعلون الغالبون والله معكم أي بالنصرة على أعدائكم ولن يترك أعمالكم ولن ينقصكم شيئًا من ثوابها، بل يثيبكم عليها، ويمنحكم المزيد من فضله"(١).

وجاء في تفسير الصافي للفيض الكاشاني (١٠٩١هـ)"فلا تضعفوا ولا تهنوا وادعوا إلى السلم ولا تدعوا إلى الصلح تذللًا وخورًا وأنتم الأعلون الغالبون وأنَّ الله معكم وناصركم ولن يترككم ولن يضيع أعمالكم(٢).

اتضح ممَّا سبق أنَّ العلَّامة الطباطبائيّ وافق المفسرَين الطبرسي والفيض الكاشاني في أنَّ الشجاعة عنصر هام في الدفاع عن العقيدة والدين وأنَّ الله معكم بالنصر والتفوق على عدوكم وأنتم الغالبون المؤيدون من الله وناصركم عليهم ولن ينقص شيئًا من أجوركم بل يوفيها لكم تامَّة كاملة.

- العدل:

وهو من الصفات المحمودة التي حثَّ عليها أنبياء أولو العزم هو الذي لا ينحرف به الهوى فيتجاوز الحد في الحكم، وما يكون في الأنفس أنَّه مستقيم"(٣)، فقد أقرَّ القرآن الكريم العدل وقد أشار على أهميته في آيات كثيرة وهو الغاية من تشريع الدين، فإيجاد الإنسان العادل وإقامة المجتمع العادل هي غاية الله تعالى"(٤).

ويحمله على اعتدال أخلاقه وتوسَّط فيها بين طرفي الأفراط والتفريط، فيحمله على خلق السخاء والجود الذي هو توسيط بين (البخل والتبذير، وعلى أخلاق

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي: ١٧٩/٩.
(٢) تفسير الصافي، محسن الملقب بـ" الفيض الكاشاني: ٥ / ٣١.
(٣) لسان العرب، ابن منظور الإفريقي:١١ / ٤٣٠.
(٤) الإسلام، محمد أمين زين الدين، :٣٣٠.

الشجاعة، الذي هو توسيط بين التهور والجبن، وعلى الحلم الذي هو توسيط بين المهانة والغضب وسقوط النفس"[1]، وقد ورد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة فيها قصص لأنبياء أولو العزم تحث على صفة العدل كما في قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:٢٥)

وقد بيَّن العلَّامة الطباطبائيّ (١٤٠١هـ) في تفسيره استئناف يتبيَّن به معنى تشريع الدين بإرسال الأنبياء وتنزيل الكتب والميزان والغرض من ذلك كلّه هو قيام الناس بالقسط وامتحانهم بذلك، ومن ينتصر في سبيل الله بالغيب ويتبيَّن أنَّ الرسالة أمرأ لم يزل متتابعًا بين الناس ولم يزال يهتدي به من كلِّ أمَّة بعضهم وكثير من الناس فاسقون بالآيات البينات التي جاء بها الأنبياء أولو العزم والتي يتبيَّن بها أنَّهم مبعوثون من جانب الله سبحانه من حيث المعجزات الخارقة ومن البشائر الواضحة والحجج القاطعة، وأنزل معهم الكتاب ويعني هو الوحي الذي يكتب فيصير كتابًا؛ لاشتماله على معارف الدين من حيث الاعتقاد والعمل وهم خمسة: كتاب نوح وكتاب إبراهيم والتوراة والإنجيل والقرآن. وأنزلَ الميزان لإقامة الناس في العدل في أعمالهم وقوام الاجتماع بالمعاملات التي تحيط بينهم والمبادلات في الأمتعة والسلع، وقوام المعاملات في الأوزان بحفظ النسب بينها وهو شأن الميزان. والمراد بالميزان الدين فإنَّ الدين الذي يوازن به بين عقائد الأشخاص وأعمالهم، وقيل: إنَّ المُراد بالميزان هو العدل[2].

وبيَّن البيضاويُّ (ت٦٨٥هـ) في تفسيره لقد أرسلنا رسلنا أي الملائكة إلى الأنبياء إلى الأمم بالبينات بالمعجزات والحجج القاطعة؛ ليبيِّن الحق ويميز الأعمال الحسنة وإنزالهم بأسبابه وأمر بإعداده وقيل المراد منها أنزل الميزان إلى نوح عليه السلام ويُراد به العدل لتقوم به السياسة ويدفع به أعداء الدين[3].

(١) موسوعة الأخلاق، خالد بن جمعة الخراز:٢٥.

(٢) تفسير الميزان، السيد الطباطبائي: ١٩ / ١٧١-١٧٢.

(٣) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي (ت ٦٨٥هـ): ١٩٠/٥.

ويتضح ممَّا تقدم أنَّ العلَّامة الطباطبائيّ لم يختلف مع البيضاويّ في تفسيره لمعنى أنَّ الأنبياء عليهم السلام جميعًا أُرسلوا بالمعجزات الخارقة والبشارات البينة وأنزل معهم الكتاب وهو الوحي؛ لاشتماله على معارف الدين من الاعتقاد والعمل والكتب خمسة؛ كتاب نوح، وكتاب إبراهيم، وكتاب التوراة، وكتاب الإنجيل، والقرآن الكريم، وأنزل الميزان وهو العدل في معاملاتهم.

الخاتمة:ـ

إن الأخلاق لها دوراً مهم وأساسي في دعوة أنبياء أولي العزم عليهم السلام لهداية أقوامهم إذ إن الأخلاق تختلف حسب أصولها وفروعها الرامية إلى إصلاح المجتمعات فميزان الأخلاق هو نابع من سلوك الفرد والمجتمع، وإذا اختل هذا الميزان يبزر الخلل في السلوكيات والمعاملات؛ لأنها تعود بالنفع على جميع أفراد المجتمع، فالأخلاق المحمودة التي دعا اليها أنبياء أولو العزم ليست مجرد تصرفات فردية ، بل هي أساس بناء وتكامل مجتمع متماسك ومتقدم ، فأنبياء أولي العزم لم تقتصر مهمتهم على نشر العقيدة فقط بل كانوا نموذجاً حياً للأخلاق التي يقتدي بها الفرد والمجتمع، وقد تبين أن الصفات الأخلاقية العظيمة كالصبر والعدل والشجاعة والعفة تتميز من نبي إلى أخر ساعدته في تحقيق رسالته فقد كانوا نماذج حية للأخلاق الرفيعة، إذ تجسدت في سيرتهم أسمى القيم التي يمكن أن يقتدي بها الإنسان في حياته. فقد تحلوا بالصبر في مواجهة الشدائد، كما فعل نبي الله نوح عليه السلام الذي دعا قومه ٩٥٠ سنة دون يأس، وغيره من الأنبياء الذي صبروا على الابتلاء. وكانوا مثالا للرحمة والتسامح، كما فعل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين عفا عن أهل مكة بعد سنوات من الأذى. وقد برز موقف أنبياء أولي العزم في دورهم الرسالي في هداية الناس إلى طريق الحق كما بينه العلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان في تفسير القرآن بأن الأخلاق غاية في ذاتها مسنداً إلى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أخلاق القرآن، عبد الوهاب عزام، مكتبة النور، مصر. د.ت.
- أخلاق المسلم قصص ومواعظ، حمزة الجبالي ٢٠١٦، دار الأم الثقافي.
- الأخلاق في القرآن، ناصر مكارم الشيرازي، مدرسه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قم.
- الإسلام، محمد أمين زين الدين، منشورات زين الدين للمعارف الإسلاميّة، النجف الأشرف، ٢٠١١م، ط٣.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١ -١٤١٨ هـ.التبيان في تفسير القرآن، الحسن الطوسي.
- تفسير الصافي محسن الملقب بـ" الفيض الكاشاني، منشورات مكتبة الصدر، طهران.
- تفسير الميزان، السيد الطباطبائي، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، إيران، دار الفكر.
- تهذيب الأخلاق، احمد بن محمد ابن مسكويه، تاريخ النشر:١٩٨٩، دار الفكر العربي.
- دستور الأخلاق من وحي الكتاب والسنة، أميدي، زهير، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨م، بيروت-لبنان.
- سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، السيد محمد حسين الطباطبائي، الشيخ محمد هادي الفقهي، مؤسسة النشر الإسلامي قم المشرفة، د.ط. د.ت.
- العفة ومنهج الاستعفاف، يحيى بن سلمان العقيلي، دار الدعوة، الكويت، ط١، ١٩٨٩،
- مظاهر العفة في قصة المرأتين مع موسى عليه السلام، عقيل سالم الشمري، العبيكان، ط١، ٢٠١٦م، الرياض:١٦.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ٢٠٠٧.

- قضايا المجتمع والأسرة والزواج على ضوء القرآن الكريم، السيد محمد حسين الطباطبائي دار الصفوة. بيروت،١٩٩٥.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، (ت ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت ط٣ -١٤١٤ هـ.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ) تحقيق، محسن الأمين العاملي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان، ١٩٩٥م.
- مفهوم الاخلاق، ولتر ستيس، ترجمة: نبيل باسيليوس، دار افاق، القاهرة، ٢٠٢٠.
- موسوعة الأخلاق، خالد بن جمعة الخراز، مكتبة أهل لأثر، ط١، ٢٠٠٩م.